المقتطف

الجزء الاول من المجلد التاسع والاربعين

١ يوليو (تموز) سنة ١٩١٦ — الموافق ١ رمضان سنة ١٣٣٤

اللورد كتشنر

ولمحة من سيرته

الطود العظيم يختلف وصف مناظره باختلاف جهة الناظر اليه . فتارة يصف واصفهُ خضرتهُ وانصرتهُ وبهجة منظره وجمال قنته . وتارة اشجارهُ الغيناء وعيونهُ الثرارة ومياههُ الخجيلاء . وتارة صخورهُ ووعورهُ الى غير ذلك من مختلف المناظر التي تستقبل الناظر

والرجل العظيم كالطود العظيم لهُ من الحجايا والمزايا والافعال العظيمة والاخلاق الكريمة والخدم الجليلة والآثار النافعة والمساعي الحميدة ما يحط قلم البليغ المقالات المديدة في وصفهِ ولا يستوفي مع ذلك غير القليل من شرحهِ

نعى الينا البرق في اوائل الشهر الماضي رجلاً عظيماً ولا كالرجال وبطلاً مقداماً تعنو لهيبتهِ الابطال وطوداً منيفاً تخر لسطوتهِ الجبال . فالانكليز خسروا بفقد كتشنر سيداً ماجداً وقائداً مقداماً ومديراً عظيماً ولكن خسارتهم هذه جاءت بعد ما قضى معظم سني عمرهِ في خدمة وطنهِ حتى انشأ بشدة ذكائهِ وفائق همتهِ الجيوش الانكليزية التي هي اليوم سياج الامبراطورية . فمصابهم بهِ عظيم من حيث كونهُ قطباً عظيماً في الامة وخسارتهم بفقدهِ كبيرة من حيث ما لهُ من نفوذ الكلمة وعلو المكانة في النفوس . لانا ما سمعنا قبل قيام اللورد كتشنر ان امة انقادت لصوت رجل واحد من رجالها كما انقادت الامة الانكليزية الى صوتهِ ولبى شبانها دعوتهُ حتى انتظم منهم مليونان في الجيش الانكليزي طوعاً واختياراً اجابة لطلبهِ في عام واحد . وما زالوا يسارعون الى التجند حتى ناف عددهم على خمسة ملايين قبل تمام العامين . وقلما رأينا ضباط امة وجنودها يهابون قائدهم كما كانوا يهابون اللورد كتشنر لشدة

وطأته ومزيد تدقيقه في قيادته ويهيمون مع ذلك في حبه ويطنبون في مدحه حتى انك لو سألت ايًّا شئت منهم لكان يجيبك انا نهجم على الموت طوع امره ونتبعه الى ساحات الردى عن طيب نفس ولو كان اشد قوّادنا علينا واقلهم رفقًا بنا. وما ذلك الاَّ لمزيد اعجابهم به واحترامهم له واستعظامهم لمقدرته وكفاءته وبسالته في قيادته

ومع ان النقّاد الحربيين يعدونه في مقدمة القواد العظام المدبرين والمنظمين لا القوّاد المحاربين فهو في اعتبار السواد الاعظم من الامة الانكليزية بطلها الذي لا يبارى وفارسها الذي لا يجارى. فكان اذا مر امامها عند عرض الجيوش مع غيره من القواد وكبار الضباط او في موكب حافل برجال الدولة تهتف له حتى يشق عنانها الصنان وتظهر كل امارات الاعجاب والاستحسان. واذا ذكرته في مسامراتها ومجتمعاتها اطنبت في مدحه وتفننت بخصاله وفضائله كما يفعل عامة مصر والشام عند ذكر عنترة العبسي او ابي زيد الهلالي او ذياب بن غانم

كنّا في بدء الحرب ببلاد الانكليز فقصدنا يومًا فندقًا على ضفة نهر التايمز يقصده الناس في الصيف كثيرًا لحسن موقعه وجمال بقعته وطيب هوائه وبهجة نزهته ونزلنا مساء الى غرفة المائدة لتناول العشاء فرأينا رجلاً من فضلاء الانكليز واقفًا كالخطيب بين الجالسين على الموائد يتعيبن اللورد كتشنر وزيراً لحربية الانكليزية ويعزو اليه من العجائب والغرائب ويروي عنه من القصص والنوادر ما جعل احدنا يهمس الى الآخر قائلاً صدق من قال ان كتشنر عنترة الانكليز. وقابلنا بعد ذلك جناب اللورد كرومر وهو يومئذٍ عليل يشكو السقام في منزله فاشار الى فضل اللورد كتشنر في التجنيد وقال باسمًا لا يكثر على من رزق شمل الدراويش في بلادهم ان يجمع شمل قومه في بلاده

على ان خسارة اللورد كتشنر معًا عظمت على قومه فهي ليست من الخسائر التي تؤثر في الحرب بعد وقوعها لان تأثير كتشنر الفعلي في الحرب والتجنيد قلَّ بعد ما مالت الآراء الى جعل التجنيد الزاميًّا واصبح معظم تأثيره في الحرب منذ ذلك الحين ادبيًّا

قضى خمسًا واربعين سنة دأبًا في خدمة دولته وامته ولعل اعظم خدمه هذه كانت مدة اقامته في الديار المصرية من حيث ارتباطها بالامبراطورية الانكليزية فخسارة مصر يفقده عظيمة كخسارة سواها ان لم نقل انها اعظم منها. جاء مصر وهو ضابط صغير واخبرنا احد اصدقائه انهُ اتاها من قبرص خفية خلافًا لامر رئيسه وطوعًا لاغرائه واغراء بعض الضباط رفاقه. وكان قصده من هذه المخالفة اخفية مشاهدة ما تفعله مدافع البوارج الانكليزية بحصون الاسكندرية ولولا حسن حظه وطلب السلطة العسكرية بقاءه في مصر لعاد الى

قبرس وعوقب على هذه المخالفة . وانتظم في الجيش المصري منذ اوائل انشائه وما زال يعظم فيه ويرتقي حتى صار سردارهُ وتم فتح السودان على يديه فطار صيتهُ في الآفاق ولاسيما بما اظهر من التدابير المحكمة والاعمال المتقنة وقلة الخسارة في الرجال والنفقة في الاموال . ففي مصر تمرس وتمرن وفي جيشها تقدم وارتقى ووضع اساس عظمتهِ وشهرتهِ . وان كان الضباط الانكليز يهابونهُ ويهيبون بهِ فالضباط المصريون اشد منهم هيبة لهُ وهياماً بهِ ومن سنا لا يعلم مقدار حبهِ لهم وعطفهِ عليهم وتفضيلهُ مجالستهم ومعاشرتهم على مجالسة السادات والامراء في مجالس الانس والحفلات العمومية

ولو فارق الفقيد مصر بعد فتح السودان ولم يعد اليها بعد حرب البوير وتنظيمهِ جيش الهند لكان اعظم الذين يحزنون على فقدهِ في هذا القطر الضباط وغيرهم من الموظفين الذين عاشروهُ ولكن رجوعهُ الى مصر للاشراف على ادارتها والعناية بتدبير امورها والسهر على دوام الاصلاح فيها علَّق بهِ قلوب المنكبين كما علق قلوب المكرمين لما لهُ من المآثر والآثار الحسان فيها . فامراء مصر ووزراؤها وتوابها واعيانها وتجارها وعلى الخصوص المزارعون فيها يعدونهُ من الاصدقاء الصادقين لهم والمخلصين في غيرتهِ على خيرهم ويذكرون اعمالهُ بالثناء وهم جميعهم يعدون خسارتهُ اليوم اعظم خسارة ويشعرون بان فقدهُ فقد صديق عزيز على مصر ويحفظون لهُ في قلوبهم ذكراً جميلاً ابد الدهر

***

ولد اللورد كتشنر في ٢٤ يونيو سنة ١٨٥٠ بارلندا من والدين انكليزيين ودرس في مدرسة ولتش الحربية ثم انتظم في سلك المهندسين المنكبين سنة ١٨٧١ وكان قد تطوع في الجيش الفرنسوي سنة ١٨٧٠ وحارب الالمان في حرب تلك السنة الشهيرة . ثم عهد اليهِ في مسح فلسطين من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٧٨ . وزار لبنان مع شقيقتهِ واقام في قرية شملان بضعة اسابيع وفي عاليه وسواها من مصايف ذلك الجبل ثم مسح جزيرة قبرس وسافر منها الى الاستانة حيث تعلم اللغة التركية ثم غادرها الى البلقان وانتظم في سلك الجنود التي كان يقودها باكر باشا

وقدم القطر المصري في ٢١ فبراير سنة ١٨٨٣ ودخل في خدمة الجيش المصري وفي السنة التالية انتدب مع الفتنت رندل (الجنرال رندل الآن) للسفر الى بربر بالسودان ومساعدة مديرها على تسكين البلاد ولكن بربر سقطت بيد رجال المهدي قبل ان يتيسر لهما مغادرة كروسكو

وشبت الثورة في دنقلة تطوع اللورد كتشنر للذهاب اليها واستجلاء الحقيقة فيها فيلغها في اول اغسطس سنة ١٨٨٤ فوجد مديرها متمسكاً بمحاربة الدراويش واستأذن الحكومة المصرية في مساعدته فابت عليه ذلك ثم تزايد زحف الدراويش واخذ يتسم الاخبار عن الجنرال غوردن في الخرطوم وارسل تقريراً مسهباً عن حالة دنقله وما سمعهُ عن الجنرال غوردن الى الحكومة المصرية وكان لهُ شأن كبير في الحملة الانكليزية التي ارسلت بطريق النيل لانقاذ الجنرال غوردن في الخرطوم . وكان غوردن بأشا شديد الاعجاب به وقد تنبأ بان مستقبلهُ سيكون باهراً جداً

وظل اللورد كتشنر في خدمة الجيش المصري اول مرة الى ١٥ يوليو سنة ١٨٨٥ فرجع الى الجيش الانكليزي وبقي فيهِ الى ٢٥ اغسطس سنة ١٨٨٦ ثم عاد الى خدمة الجيش المصري وعين قومندانًا لسواكن وساحل البحر الاحمر

وهاجم عثمان دقنه في هندوب سنة ١٨٨٨ ففر هذا من امامهِ واصيب اللورد كتشنر برصاصة في وجههِ في هذه المعركة فجرحتهُ جرحًا بالغًا اضطر ان يسافر الى القاهرة بسببهِ . وشهد ايضًا معركة الجيزة بعد احد عشر شهراً من معركة هندوب وكان قائداً للواء الاول من الجنود السودانية . وامتاز في معركة طوشكي على الحدود المصرية بالبسالة والاقدام

واتخذتهُ الحكومة المصرية في سنة ١٨٩١ مفتشًا عامًا للبوليس فكانت لهُ اليد الطولى في اصلاح شؤونهِ وتحسين حالهِ ووضع القوانين لهُ وقضى على عصابات الاشرار التي كانت تعيث في البلاد فساداً في تلك الايام

وعين بعد ذلك ادجوتانت جنرال للجيش المصري ثم استعفى الجنرال السرجون غرنفل من قيادة الجيش المصري فعين سردارًا مكانهُ في ١٢ ابريل سنة ١٨٩٢

وسيرة اللورد كتشنر معروفة للقراء بعد هذا التاريخ . فان الحكومة المصرية قررت في ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ الزحف على دنقله والتظاهر بالزحف على بربر وفي ١٨ مارس سنة ١٨٩٦ ابتدأ الزحف على دنقله ولم يحل يوم ١٥ اكتوبر من تلك السنة حتى تم فتحها وانحلت الحملة

وقاد في سنة ١٨٩٨ الحملة على الخرطوم وتم استرجاع السودان في اواخر السنة التالية . وفي ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٨ التقى بالماجور مرشان (الجنرال مرشان الآن) في فاشوده بعد ان كاد الخلاف عليها يؤدي الى حرب كبيرة بين انكلترا وفرنسا

وقد انعم عليهِ بعد استرجاع السودان بلقب لورد ومنحتهُ حكومتهُ ٣٠ الف جنيه مكافأة لهُ على ذلك وعين حاكماً عامًا للسودان مع بقائهِ سردارًا للجيش المصري

وفي ٣٠ دسمبر سنة ١٨٩٩ ندب رئيساً لاركان حرب اللورد روبرتس في جنوب افريقية وظل في هذا المنصب الى سنة ١٩٠٠ لما غادر اللورد روبرتس جنوب افريقية فتولى القيادة العامة مكانهُ حتى انتهت تلك الحرب فكوفئ بترقيتهِ الى رتبة جنرال ومنح ٥٠ الف جنيه

وفي سنة ١٩٠٢ عين قائداً عاماً لجيش الهند فادخل عليهِ اصلاحاً كبيراً وعارض اللورد كرزن حاكم الهند حينئذٍ في بعض الامور فكان الفوز لهُ فيها واضطر اللورد كرزن الى الاستعفاء

وقد اجفل بهِ جوادهُ مرة في الهند فكسرت ساقهُ وكانت قد كسرت من قبل في سورية على ما يقال وظل يشكو من اثر هذا الكسر في ساقهِ لما كان معتمداً لدولتهِ في هذا القطر فكان يتوكأ على عصا وفي بعض الاحيان يصعب عليهِ المشي

وندبتهُ حكومتهُ سنة ١٩٠٩ لتعهد الدفاع في المستعمرات الانكليزية وزار اليابان في تلك الاثناء فجرى لهُ استقبال حافل فيها

وزار استراليا فكلفتهُ حكومتها ان يضع لها خطة عسكرية للدفاع الوطني فلبى طلبها ووضع الخطة التي سارت الحكومة الاسترالية عليها في تنظيم حامية بلادها

وعاد الى انكلترا وعين عضواً في لجنة الدفاع الامبراطورية ومنح رتبة فيلد مارشال

وعين بعد ذلك وكيلاً لدولة انكلترا وتفصلاً جنرالاً لها في القطر المصري خلفاً للسر الدن غورست وانعم عليهِ منذ ثلاثة اعوام برتبة اول وظل في هذا المنصب الى ان شبت الحرب وكان حينئذٍ عائداً من انكلترا الى مصر فاسترجعتهُ حكومتهُ من الطريق وعينتهُ وزيراً للحربية . وقد قابلت الامة الانكليزية تعيينهُ حينئذٍ بالارتياح والسرور وكانت ثقة الامة باصالة رأيهِ وبعد همتهِ وذكائهِ من اكبر العوامل التي حملت الانكليز على التطوع للخدمة في الجيش ومكنتهم من تجييش الجيوش وتنظيمها

وقد نال ارفع النياشين في الامبراطورية الانكليزية مثل نيشان الامتياز ونيشان الجارتر الذي لا يهدى عادة الاَّ الى الملوك والامراء

وفي الخامس من يونيو الماضي ركب طراداً صغيراً قاصداً روسيا مع ياورهِ الخاص وجماعة من اركان حربهِ فلم يكد الطراد يسير بهم حتى ضرب بطريد او مسٌ الغماً فنسف وغرق اكثر الذين فيهِ وثبت ان اللورد كتشنر من الذين غرقوا فشمل الحزن عليهِ الامبراطورية الانكليزية والممالك المحالفة لها وكل الذين يتمنون ان يكثر الرجال العظام النافعون